مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

الإيطيقا كفلسفة أولى
مدخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس

د. جلال بدلة*

(تاريخ الإيداع 4 / 7 / 2017. قبل للنشر في 22 / 8 / 2017)

□ ملخّص □

تُعد فلسفة إيمانويل ليفيناس من أبرز الفلسفات المعاصرة المجددة. تمثّلت الجدّة التي حملتها في تنصيبها للإيطيقا كفلسفة أولى. تاريخياً، كانت الميتافيزيقا، والأنطولوجيا من بعدها، هي التي تشغل هذا المكان، وذلك لأنها هي التي تكفّلت بالإحاطة بمعنى الكينونة. لإنجاز هذه النقلة المهمة، كان على ليفيناس أن يواجه فلسفة هيدغر ومشروعه في الأنطولوجيا الأساسية. الرهانات الناجمة عن هذه النقلة مهمة وأحدثت تغييراً محورياً في تناول الموضوعات الفلسفية التقليدية. يعود ليفيناس إلى البدء، إلى بدء سؤال الفلسفة والدهشة الأولى لفلاسفة اليونان، محاولاً أن يُعطي معنىً آخر لهذه البداية. كما يُقدم لنا قراءة شاملة للتاريخ الفلسفي، وذلك انطلاقاً من هذا المنظور الجديد للفلسفة الأولى على أنها إيطيقا.

الكلمات المفتاحية: إيطيقا، فلسفة أولى، ميتافيزيقا، كينونة، الوجه، الدين، الإلحاد.

*مدرس – قسم الفلسفة – كلية الآداب– جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

Ethics as a Primary Philosophy
Introduction to the Philosophy of Emmanuel Levinas

Dr. Jalal Badleh*

(Received 4 / 7 / 2017. Accepted 22 / 8 / 2017)

□ ABSTRACT □

The philosophy of Emmanuel Levinas is considered as one of the most prominent contemporary philosophies. The renewing that presents this philosophy is related to the fact that it raises the ethics as a primary philosophy. Historically, it was the metaphysics - and later the ontology - that occupied this place, and this was because it ensured the discernment of the meaning of being. In order to accomplish this important shift, Levinas had to face the philosophy of Heidegger and his project of basic ontology. The bets that were caused by this move are very important, and they caused a major change in the treatment of the classic philosophical subjects. Levinas returns back to the commencement, to the commencement of the question, to the first astonishment of Greek philosophers, trying to give another meaning to this beginning. He also represents a complete reading of the philosophical history, based on this new perspective of the primary philosophy considered as ethics.

Key Words: Ethics, primary philosophy, metaphysics, being, the face, the religion, the atheism.

* **Assistant Professor, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة

يشكل مذهب الفيلسوف الفرنسي إيمانويل ليفيناس (1906 – 1995) خروجاً عن المناخ العام السائد في أوروبا والعالم الغربي ككل. ففي وقت يتحدث فيه معظم الفلاسفة عن نهاية الفلسفة كنسق كلي من الأفكار، ويدعون إلى شكل من التفلسف لا يتخذ من النمط السردي التقليدي نموذجاً له، يعود ليفيناس إلى أشد أشكال الفلسفة كلاسيكية، يعود إلى الفلسفة منذ فجر سؤالها الأول، أو إلى فجر الفلسفة الذي انبلج من خلال السؤال. يعود ليفيناس إلى أصل السؤال وسؤال الأصل. ويطرح كل هذه المسائل بطريقة تقليدية نسقية، وذلك دونما أي إعراض عن المناهج الفلسفية الحديثة، والمنهج الفينومينولوجي على وجه الخصوص. يمكن تلخيص فلسفته بقول مفاده أنالإيطيقاهي الفلسفة الأولى.

أهمية البحث وأهدافه

على الرغم من أن ليفيناس نشر مؤلفاته الاولى منذ الثلاثينيات من القرن المنصرم، إلا أن الاهتمام به عربياً لم يبدأ إلا متأخراً جداً. لا يوجد كتاب أو مؤلف كامل يعرض لفلسفته بشكل نسقي، ونكاد لا نجد إلا بعض المقالات التي، على الرغم من أهميتها، لا تنفذ إلى فكره وتعرضه بكليته. كما لم يترجم له إلا عملٌ واحد، قام بترجمته كاتب هذه المقالة.

سنحاول في هذه المقالة أن نقدم فلسفة ليفيناس بعناوينها الكبرى، بأسئلتها الجديدة والمبتكرة، وبأجوبتها اللافتة والمُجددة. بطريقتها الجديدة في إعادة طرح الأسئلة الكبرى في الفلسفة، وبإعادة الموضوعات التي أهملها تاريخ الفلسفة (نسيها؟) إلى مركز الاهتمام. هدفنا في هذا البحث أيضاً الكشف عن طريقة أخرى في التفلسف، أعطت للموضوعات التي كانت إلى الآن حكراً على الفضاء البحثي الثيولوجي، معنىً فلسفياً، لتدرجها إذ ذلك في مجال البحث الحر الذي يشكل خصيصة الفلسفة.ولعلّ أهم ما نريد التركيز عليه هو المعنى الجديد والمبتكر الذي يعطيه ليفيناس للإلحاد. هذا الموضوع الذي اختزل تاريخياً إلى انكار وجود الله، سيعيد ليفيناس صوغه ليجعل منه طريقاً، لا مناص منه، للعلاقة مع الله.

منهجية البحث

سنتبع المنهج التحليلي النقدي. وسنركّز على أهم المؤلفات التي شكّلت مفاصل محورية في مسيرة الفيلسوف. وهي **هروب** (1935)، **من الوجود إلى الموجود** (1947)، **الكلانية واللامتناهي** (1961)، **الله والموت والزمان** (1995). ونقصد بالمنهج النقدي المعنى الذي اتخذه على يد كانط، أي: الإحاطة وشرح شروط إمكان ظهور هذه الفلسفة، من خلال إعادة إنتاج أسئلتها بشكل نسقي. كما سنتبع المنهج المقارن أيضاً، وذلك بمقابلة الأسئلة المحورية عند هيدغر، والمعنى الذي اتخذته عند ليفيناس.

أولاً. الفلسفة الأولى بين الميتافيزيقا والأنطولوجيا

من المعروف في تاريخ الفلسفة أن مكان الفلسفة الأولى كان محفوظاً للميتافيزيقا أو الأنطولوجيا. فالفلسفة الأولى هي مجموعة من المبادئ التي تنبثق منها وحدة المعرفة وأساسها، وبهذا هي ميتافيزيقا. عرفها أرسطو على أنها: "معرفة في العلل الأولى". لكنأرسطوتحدث أيضاً في كتابه **الميتافيزيقا**عن علم آخر:"يوجد علم يدرس الوجود بما هو

موجود وخصائصهالأساسية". هذا العلم يتعارض مع العلوم الخاصة أو الجزئية لأنه لا يدرس وجوداً جزئياً ما، وإنما الوجود ككل. أرسطو تحدث عن هذا العلم من دون أن يعطيه اسماً.

من هنا الخلط التاريخي ـ خلط وليس خطأ ـ بين الأنطولوجيا والميتافيزيقا.فهذا العلم لم يسمّ "أنطولوجيا" إلا في القرن السابع عشر، مع كلوبرغ، للإشارة إلى أن الميتافيزيقا وحدها لا تكفي لاستنفاذ وتحديد الكينونة التي تتضمنها مسألة الوجود. وتكرر استخدامها في القرن الثامن عشر، مع وولف هذه المرة، الذي استخدم كلمة "أنطولوجيا"للإشارةإلى الميتافيزيقيا على وجه العموم. ضمن هذا المنظور، يميز كانط في **نقد العقل المحض** بين الأنطولوجيا من جهة وبين الأقسام الثلاثة المتبقية لِـ"منظومة الميتافيزيقا"، أي البسيكولوجيا والكوسمولوجيا والثيولوجيا.

"الفلسفة الأولى"بالنسبة إلى كانط هي "الفلسفة الترنسدنتالية"، أي –إذا ما احتكمنا إلى معنى الترانسندنتالي لدى كانط – الفلسفة "التي تدرس الشروط القبلية للمعرفة"، وبهذا المعنى فهي أولى.

يُطلعنا تاريخ الفلسفة على معانٍ كثيرة للأنطولوجيا. على سبيل المثال: هي علم الوجود بالتناقض مع الصيرورة (أفلاطون)،أو علم الجوهر (أرسطو)،أي الموضوع الواقعي والمحدد وفق المقولات. اعتبرها رسل، ومن بعده كوين، امتداداً للإبستمولوجيا، انطلاقاً من عبارة أرسطوالقائلة إن "الوجود بالمعنى الحصري يقال بعدة معان". هنا ارتبطت الأنطولوجيا بمشكلة المعرفة، وبشكل خاص بنظرية المعنى والمرجع لتصبح "التفكّر في الكينونات المستخدمة في الخطاب"،وتجيب عن السؤال: عن ماذا نتكلم؟

إلا أن تاريخ الفلسفة اتّخذ منعطفاً جذرياً مع هيدغر،ومع التقابل الذي أقامه بين الأنطولوجي من ناحية والأنطيقي من ناحية أخرى. الأول موضوعه الوجود والثاني الموجود. ولكن، بما أن الوجود هو الذي يزود الموجود بكل إمكانيات الانبثاق، ففينومينولوجيا هيدغر جعلت من الأنطولوجيا هي ما يحدد سؤال "معنى الوجود" على العموم. وبالتالي فالأنطولوجيا لم تعد تهتم بالمقولات الجوهرية للموجود،وإنماتهيئ بشكل ملائم موقع سؤال الوجود. وسيحفظ هيدغر كلمة "الميتافيزيقا" للفلسفة التي تهتم بالكائن (الموجود) وتنسى الكينونة (الوجود). وصف هيدغر هذه الميتافيزيقا أيضاً بالأنطوتيولوجيا، أي الفلسفة التي تنطلق من مبحث الوجود، لينتهي الأمر بها في وصف الموجود الأول (الله).

في هذا الموقع بالذات تتدخل فلسفة ليفيناس ومقولته في "الإيطيقا كفلسفة أولى"، وهي عبارة موجهة أصلاً ضد أنطولوجيا هيدغر.ليفيناس يرى طريقاً آخر غير الذي سلكه هيدغر. يرى إمكان الجمع بين سؤال الكينونة و"وجود" الله، من دون أن تقع في ما وصفه هيدغر بالأنطوتيولوجيا. ونحن إذ وضعنا كلمة "الله" بين قوسين، فذلك لنحذّر من التسرّع في فهم هذه المسألة على نحو تقليدي. فوجود الله، بالنسبة إلى ليفيناس، يتماهى مع غيابه بنحو فريد ومبتكر– كما سنرى تباعاً. في الحقيقة، يمكن القول في هذا الخصوص إن كل سطر كتبه ليفيناس، إنما كتبه بالتناقض وكنقد لفلسفة هيدغر. وهذا ما سيتضح معنا لاحقاً.

إن الانطولوجيا الأساسية لدى هيدجر تعالج مسألة معنى الوجود، وبهذا المعنى هي فلسفة أولى. إلا أنليفيناس يقول إن الإيطيقا هي القادرة وحدها على تناول هذه المسالة، بل إن الوجود لا معنى له إلّا من خلال "الإيطيقا"[1].

[1] أكد ليفيناس في أكثر من موضع على ضرورة نقد فلسفة هيدغر، وذلك على الرغم من أهميتها. يقول في هذا الصدد: "على الرغم من أن تأملاتنا استلهمت في بداياتها وعلى نطاق واسع –في ما يخص مفهوم الأنطولوجيا والعلاقة التي بنسجها الإنسان مع الكينونة – من فلسفة هيدغر، إلا أنها محكومة بحاجة ملحة لمغادرة مناخ هذه الفلسفة وبقناعة أننا لن نستطيع مغادرتها نحو فلسفة تكون ما بعد هيدغرية."، من الوجود إلى الموجود، ص19.

ثانياً. الإيطيقا قبل الأنطولوجيا:

وبما أن ليفيناس يعزو إلى هذه "الإيطيقا" مهمة الكشف عن معنى الوجود، فهي بهذا المعنى "ميتافيزيقا" بالمعنى الأرسطي لهذه الكلمة، أي مبحث يكشف عن العلة الأولى للوجود.

يريد ليفيناسلفلسفته في الأخلاقأن تكون نهاية للصراع ضمن تاريخ الفلسفة بين فكر الوجود المحدد كفكر للذات والتناهي، وبين ما هو متروك خارج هذا الفضاء عبر هذا الفكر ذاته، أي الآخرية واللامتناهي.فالفلسفة الغربية كانت على الدوام ما يسميه ليفيناس "أنطولوجيا"، أي محاولة لفهم وجود ما هو موجود أو فهم الموجودات. والأنطولوجيا الأساسية لِ هيدغر هي ما تمثل – وفق هذا المعنى –تتويجاً لتاريخ الفلسفة الغربية. إلا أن ليفيناس يعود إلى سؤال الكينونة الذي شكل الدعامة الرئيسية للفلسفة الغربية، ويرى أن بداهته المفروضة إنما تُخفي وراءها نسياناً، هو نسيان الآخر، ورغبةً في اختزال آخريته. يحاول ليفيناس في أكثر من موضع أن يبيّن أن سؤال الكينونة ليس بيديهياً وواضحاً بذاته، فعلى هذه البداهة استندت أولية الأنطولوجيا في تاريخ الفلسفة. يقول في هذا الصدد مشككاً: "ألا ترتكز أولية الأنطولوجيا بين الفروع المعرفية المختلفة على أكثر البداهات وضوحاً؟" [2]. يرفض ليفيناس هذا التماهي بين سؤال الفلسفة وسؤال الكينونة ومعناها: "طغى المبحث في هذا المعنى، أي الانطولوجيا، على الفلسفة بأكملها" [3]. الحدث الأنطولوجي الذي يحدد ويهيمن معاً على التراث الفلسفي من بارمينيدرس إلى هيدغر، يقوم بالنسبة إليه على "اختزال" كل أشكال الغيرية والآخر لتحويله إلىالذات.

يريد ليفيناسلأخلاقهأن تكون ميتافيزيقا،على اعتبار أنها تريد الصعود نحو الدلالة الأولى والمعنى الأول للوجود الإنساني. فهي تشرح الحبكة الماقبل أصلية– بالتناقض مع مقولة "الأصلي" لدى هيدغر – لهذا الوجود. ليفيناس يعارض بين الإيطيقا والأنطولوجيا، وبهذا يدعونا إلى التفكير بأخلاق أكثر أصلية من الأنطولوجيا، على اعتبار أنها هي وحدها القادرة على الإمساك بالحدث الأول للإنسانية. وحدها الأخلاق تستطيع أن تشير إلى مستوى في معنى الوجود لا تستطيع الأنطولوجيا الوصول إليه، وهو "الغيرية". وبالتالي فإن أولوية الإيطيقا هي أولوية الآخر، بالتناقض مع الأولية الانطولوجية لِ "الذات". يقول ليفيناس في الصفحات الأخيرة من كتابه الموسوم **الكلانية واللامتناهي** : "الأخلاق (.....) ليست فرعاً فلسفياً،وإنماهي الفلسفة الأولى[4]".أولى؛ لأن هدفها هو اقتفاء أثر مايسميه ليفيناس "الدلالة من دون سياق[5]" للوجود الإنساني، وبالتالي فإن الأنطولوجيا هي علم الدلالة التي لا يمكن أن تعني إلا داخل السياقات، مدلولات تتصل ببعضها البعض دونماأي إمكانلكسرهذه السلسلة.وسلسلة المدلولات هذه هي الوجود ككلانية.

لم يكن ليفيناس غريباً عن فلسفة هيدغر، إذ أنه ثابر على حضور محاضرات هذا الأخير في فريبورغ عام 1928–1929. كان النقاش الفلسفي في حينها يدور حول القراءة المعمقة والملائمة لـ **الكينونة والزمان** الذي نُشر قبل ذلك بعام واحد. على الرغم من الانتقادات التي سيوجهها ليفيناس، إلا أنه لم يتوقف عن إبداء إعجابه بهذا الكتاب: "سرعان ما تملكني إزاء هذا الكتاب إعجاب كبير – وأقول ذلك بعد سنوات من التفكير –، وأنا وإن كنت معجباً بهيدغر، فإعجابي هذا متحدر من إعجابي بـ **الكينونة والزمان**.[6]"

---

[2] Entre nous, p. 12.

[3] Ibid., p. 13.

هذا النقد المتكرر والموجه ضد هيدغر لا يجب أن يُغيّب حقيقة الدين الكبير الذي اعترف به ليفيناس نفسه في أكثر من موضع، دين – كما يقول – "يؤسف له؟" (Dieu, la mort et le temps, p. 16).

[4] Totalité et infini, p. 340.

[5] Ethique et infini, p. 80.

[6] Ibid., p. 27-28.

نقطة البداية لدى ليفيناس هي معنى الوجود في الاختلاف الأنطيقي–الأنطولوجي الذي أقامه هيدجر بين الوجود والموجود. في كتابة **من الوجود إلى الموجود**، يقوم ليفيناس باختزال العالم ليستنتج منه لا محدودية أو لا تعيّن الوجود. يقول: "لنتخيل عودة جميع الموجودات– منأشياءوأشخاص –إلى العدم(...) لكن ما معنى هذا العدم ذاته؟ شيءٌ ما يحدث،وإن كان ليل أو صمت العدم [7]". ما يهم ليفيناس في هذا الاختزال وما يريد توضيحه هو أنالوجود والعدم ليسا مفهومين متناقضين أو متعارضين. للوجود حضور ليس بإمكان أي اختزال حتى ولو كان كلياًأن يقصيه. هذا الحضور اللامحدود وغير القابل للتحديد يستخلص منه ليفيناس استحالة مقولة "ماوراء الوجود" إذا ما انطلقنا من الوجود ذاته. بعبارة أخرى، يستنتج ليفيناساستحالة لكل تعالٍ حقيقي يستحق اسم الغيرية الخارجية [8]. تشكل هذه الاستحالة قانون الوجود. "الوجود بما هو موجود" لا يستطيع أن يصحبنا إلى ما وراء تحديده. فهو حاضر حتى في عمق العدم. استحالة كهذه يجب–يؤكدليفيناس –أن تشير إلينا أن هنالك ما في الوجود ما يمنع خروجاً كهذا. هذا ما أسميناه"قانون الوجود": أي اللامحدودية أو اللاتعيّن، وهما ما يشير إليهما ليفيناس بعبارة الـ"هنالك". الـ"هنالك" هو وجود حيادي مغفل أو مجهول، لا اسم له. من هنا مقولة ليفيناس الشهيرة–وهي مقولة فينومينولوجية وليست ميتافيزيقية–:"الوجود شر، ليس لأنه متناهٍوإنمالأنه غير محدود[9]".

ثالثاً. الانفصال:

تساعدنا فكرة السيناريو الأنطولوجي على توضيح المراحل التي يمر بها الموجود قبل الخروج – أو كما سيقول ليفيناس "الهروب" [10]– إلى ما وراء الوجود.تتلخص المرحلة الأولى ضمن هذا السيناريو كما يلي:أمام لا محدودية الوجود، يحاول الموجودأن ينفصل عن الوجود، وذلك لهدفين اثنين.أولاً، ليحدده ويجعل نفسه خارج العالم،ووسيلته إلى ذلك –أي للانفصال عن الـ"هنالك" –تتمثل في"التموضع" بغية السيطرة على هذا الـ"هنالك". ويتم هذا التموضع من خلال الجسد. وهنا يتشكل ما يسميه ليفيناس"الأقنوم". يقول ليفيناس في هذا الصدد:"أدعو"أقنوماً" الحدث الذي يختزل الموجود من خلالهالوجود [11]". إثر هذا الاختزال،ينتسب الأقنومإلى الوجود،وهو انتساب من خلال الجسد. يقول ليفيناس:"الجسد هو فعلياً الطريقة التي عبرها يوجد الموجود بشكل منفصل [12]". لأن الانفصال هو ما يهم الموجود في نهاية الأمر، أي الانفصال عن الوجود/الشر. من هذا الانفصال ينتج قسمان: الأناأولاً(أي الوجود الجسدي أو المنفصل)،وثانياً العالم أو اللاأنا.وتتصل الأنا مع العالم وفق قصدية اللذة.

إلا أن هذا الانفصال يخفق فيتشكيل تعالٍ حقيقي. يرتبط فشل هذا الانفصال بواسطة الجسد بحقيقة أن هذا التموضع بات مشروطاً بتمثله عن العالم. فالجسد يعيش من هذا التمثل كمصدر متعة ولذة، وبالتالي يعود ليجعل داخلي ما كان قد انفصل عنه مسبقا:"كماءٍ، يقول ليفيناس،ينساب عن الصخرة فتجرفها معها".إن موضع الفشل هو التمتع من العالم الذي انفصل عنه،أو ما يسميه ليفيناس "قصدية اللذة" التي تشكل كيفية العلاقة بين الأنا والعالم. تَسِمُهذه القصدية عودة الخارجانية نحو الأنا، وبالتالي إعادة تنصيب للامحدودية الوجود –أو شرّه – لأن الوجود المنفصل(الأنا) يجد نفسه في موقع من يؤمّن لا محدودية الوجود وهو ينجز قصدية اللذة الخاصة به.

---

[7] De l'existence à l'existant, p. 93.

[8] العنوان الفرعي لكتابه الأساسي الكلانية واللامتناهي هو "محاولة في الخارجانية".

[9] الزمان والآخر، ص48.

[10] وهو عنوان المحاولة الفلسفية الأولى التي نشرها ليفيناس عام 1935، ونشرت في كتاب عام 1982 بعنوان De l'évasion.

[11] الزمان والآخر، ص50.

[12] Totalité et infini, p.182.

نحن إذاً أمام إخفاق لما سيسميه ليفيناس"الهروب الأول"، لكنه إخفاق ضروري لأنه سيمهد للهروب الثاني، والمتمثل في العلاقة مع الأخر. فهو مرحلة ضرورية نحو ماوراء الوجود. لذلك يقول ليفيناسإنه على الرغم من أن الوجود شر، فأن تكون خيرٌ من ألا تكون. لأنهوعبر محاولة الانفصال الفاشلة هذه، سيعرف الموجودأنه لا سبيل لتعالٍ حقيقيداخل الوجود.وأن "خبرة الوجود المحض" هي الشر. هذا الإخفاق – وضمن السيناريو ذاته –سيدفع الموجود إلى إنجاز خروج آخر،إلىانفصال حقيقي هذه المرة، يتحقق من خلاله التعالي وتُنجز العلاقة مع الأخر.

وقبل الانتقال إلى "العلاقة مع الأخر"،لا بد من توضيحنقطة مهمة عند ليفيناس تفيد بإيضاح معنى مقولة ليفيناس "الوجود شر"، وهي العلاقة بين الموجود والوجود من خلال الأنطولوجيا أو "فهم الوجود" في سياق الأنطولوجيا الأساسية لدى هيدغر. ففهم الوجود لدى الأخير مفترض داخل كل معرفة وكل علاقة مع الوجود. هذه المعرفة الأصلية مهمة جداً في **الكينونة والزمان،** وتشكل شرط إمكان كل تأويل أو تعبير مفاهيمي. من هنا يقول ليفيناسواصفاً فلسفة هيدغر:"الإنسان كله أنطولوجيا،إنتاجه العلمي، حياته الفعلية وإرضاء حاجاته والقيام بعمله،وحياته الاجتماعية وموته، كل هذا يمفصل فهم الوجود والحقيقة [13]".بالتالي، فوجود الإنسان يُختزل إلى فهمه عن الوجود. لكن ليفيناس هنا يشير إلى ما في الوجودما يقاوم فعل الفهم هذا، وهو مايسميه " كوميديا الوجود"، يقول:"الكوميديا تبدأ مع أبسط أفعالنا التي تتضمن جميعها آثاراً لا نعرفها. عندما أمد يدي لأحضركرسي،أثني كمي،أشطب الأرضية، صفوة سيجارة تقع من دون قصد مني. بعملي لما أريد فعله،أفعل ألف شيء لم أرده. الفعل لم يكن خالصاً، تركت آثاراً، وبمحاولتي لمحو هذهالآثارأترك آثاراًأخرى (...) أوديب بنجاحه، يعمل على بؤسه. تماماً كالطريدة على السهل المغطى بالثلج تهرب من ضجة الصيادين تاركةًورائهاالآثار التي ستؤدي إلى مصرعها.[14]"

إن الاختلاف الأنطيقي الأنطولوجي الذي يميز بين الوجود والموجود لا يأخذفي الاعتبار لا مبالاة الوجود إزاء الموجود. لذلك يقول ليفيناسإنفي هذا الاختلاف،ثمة تميز وليس انفصال.فالمطلوب هو انفصال لا يغيب من خلاله الموجود، أوينتهي منه الموجود للسيطرة على الوجود،وإلى ذاتية حقةلا تغوص وتضيع في الفضاء الفارغ للوجود.

الوجود بالنسبة إلى ليفيناس انعزال ووحدة، هذا هو المجال الذي يجب أن تنحصر ضمنه الأنطولوجيا. العزلة بالتالي ليست حرماناً من الآخر وإنما علاقة مع الوجود. كما أنها ليست يأساً وهجراناً وإنما فخر وسيادة. الخروج من هذا الوجود – وبالتالي من هذه الوحدة – يتم بالعلاقة مع الآخر، وهنا يأتي دور الإيطيقا. إن وجود الأنا مع الآخر لا يأخذ صيغة الوجود جنباً إلى جنب، كما بالنسبة إلى هيدغر، وإنما وجهاً إلى وجه. فالآخر وجه، والأنا جسد. في الوجه أثر لغياب الآخر الكلي – وليس أثراً لحضوره. فالآخر الكلي لا يحضر أو يوجد، وإنما يتعالى ويغيب.

لوجود الأنا مرتبات أنطولوجية، فالأنا لا تحضر دفعة واحدة. فهي أولاً تعي ذاتها داخل الوجود الذي يحيط بها والذي لا تستطيع الانفصال عنه. تسعىللانفصال عنه، فينتج الأقنوم، وهو وجود منعزل غير منفصل تماماً عن الوجود لأنه بحاجة إليه لكي يؤكد اختلافه عنه. لكن، بما أن هذا الوجود الذي يحاول الأقنوم الانفصال عنه وجودٌ مغفل، لا اسم له ومجهول، لا يستطيع الأقنوم أن ينفصل عنه تماماً، لأن الانفصال يتم بين حدين. هنا يظهر الوجود كشر، ليس لتناهيه وإنما لأنه لا حدود له. ينتج من ذلك استحالة لسيطرة الموجود على الوجود – فهمه أو إدراكه أو تحديده – لسبب أنهمغفل. وبما أنه لا حدود له، فلا مقابل له أيضاً. لا عدم يقابله. العدم ليس حداً للوجود، وإنما حضوريختلف كيفياً عنه. ماهية هذا الوجود كشر تتكشف من خلال خبرات كالأرق والتيقظ، حيث يعلن الوجود عن نفسه كامتداد لا

[13]Entre nous, p. 13.
[14] Entre nous, p. 13.

نهاية له أو لا يوجد إمكان للخروج منه. الأرق هو خبرة استحالة أي انسحاب من الوجود، تيقظ من دون هدف،من دون نقطة انطلاق أو نقطة وصول، وجود غير محدد وغير محدود، امتدادٌ للماضي في الحاضر واستحالة لرؤية المستقبل. هنا يظهر الوعي في تحديده الأول كإمكانللانسحاب من هذا الوجود/الشر. حدث الوجود هو الأقنوم وحدث الأقنوم هو الحاضر. الحاضر هو زمان الأقنوم، لكنه ليس زمانياً، أي لا يدخل مع المستقبل أو الماضي في علاقة ما. الحاضر هو الانطلاقة من الذات، ماهيته أنطولوجية. وهو عودة إلى الذات. انطلاقة من الذات وعودةإلى الذات: أنا وهوية. وحرية أيضاً: فالحرية هي إمكانية البدء على الدوام والتلاشي أيضاً. بدء وتلاشي؛ هما مكونااالحاضر. فالإنسان حر لمجرد أنه موجود. لكن الحرية هنا داخل الانعزال.

الأنا هي انطلاقة من الذات وعودة إلى الذات، لا تستطيع أن تنفصل عن ذاتها، انهماك دائم وغبي بالذات، وهذا ما يسميه ليفيناس "مادية الذات". على الموجود لكي يكون ذاتاً أن ينهمَّ بذاته على الدوام. من خلال هذا الانهمام بالذات يكتشف الموجود جسده، أي من خلال المادية وعلاقة الأنا بذاتها. تحاول الأنا الخلاص من هذا الترابط المتلاحق للأنا بالذات من خلال الحياة اليومية والعالم. إلا أن هذه العلاقة مع العالم محكومة بقصدية اللذة. تنسى الأنا ذاتها من خلال هذه القصدية ويتخلص الأقنوم من ماديته. إلا أن هذه القصدية تنتج من جديد المادية في العلاقة بين الأنا والذات لأنها محكومة بالعودة إلى العالم وترتبط به كما ترتبط بذاتها.

رابعاً. الوجه والآخر

يرفض ليفيناس تحديد الآخر كأنا أخرى، ويريد الوصول إلى خارجانية متعالية تحدث قطيعة مع الكلانية. فالعلاقة بين الأنا والآخر لا يجب أن تكون علاقة معرفة، أو تجلٍّ، ولكن علاقة انفصال. هذا الانفصال ينتج من خلال الرغبة الميتافيزيقية التي يحفرها الآخر في الأنا. إن آخرية الآخر تفوق كل آخرية أخرى لأنها ترتبط بالعلو. الآخر هو "العالي جداً"، علوه ليس مكانياً كعلو السماء وإنما ناتج من كونه غير مرئي.

من هذا العلو ينتج أن العلاقة بين الأنا والآخر هي علاقة لا يمكن أن تنعكس، أي ذات اتجاه واحد: من الأنا إلى الآخر. بين الأنا وبين الآخر لا يوجد تقابل أو مساواة.

التعالي في المذهب اللاهوتي مفاده أن الله غير موجود في العالم أو أن وجوده لايشابه وجود الأشياء. كما يقول لايبنتز: "على غرار مبدع بالنسبة إلى آلته، أو أمير بالنسبة إلى رعيته. وحتى على منوال أب بالنسبة إلى أولاده" يُقال أيضاً على المذهب القائل بوجود جواهر دائمة وأشياء بذاتها وراء المظاهر الحسية.عند هيدغر هو حركة الأنا الفردي المتفكر في وجوده والذي يعيش شعوراً بالقلق تجاه الوجود. بهذا المعنى التعالي هو صعود.عند هوسرل هو الحركة التي يستهدف من خلالها الوعي الغرض الذي يكون خارجاً عنه جذرياً، بحيث يتكون الوعي **كوعي بـ.**

المتعالي اذاً هو ما يكون فوق كل تجربة ممكنة، أي سابق على التجربة، تماماً كما لدى كانط: المتعالي هو شرط قبلي وليس من معطيات التجربة. بالنسبة إلى لايبنتز، هو مالا يمكن التعبير عنه بجذر معادلة جبرية.

التعالي بالمعنى العام هو حالة ما فوق العالم الحسي، ما هو وراء حدود المعرفة أو التجربة بالتضاد مع المحايث. فهو حالة ما هو غير قابل للمعرفة. حالة كائن في مكان ما لا ينتمي الى العالم، كالمثل الأفلاطونية.

والفلسفة المتعالية تشير إلى حركة من الذات المفكرة نحو حد العالم والأشياء التجريبية بهدف الوصول الى غيريتها ودمجها ضمن نظرية لتوضيح معناها الناجز. نشأت هذه الفلسفة مع كانط وامتدت مع هوسرل الذي يقول في التأمل الديكارتي الرابع: "كل شكل للتعالي هو معنى وجودي يتشكل داخل الأنا".

خامساً. الزمان والآخر

تشير الإيطيقا إذاً إلى مستوى ميتافيزيقي لا يمكن الأنطولوجيا بلوغه، وهو: الآخرية. إن أولية الآخر التي ينادي بها ليفيناس ليست أولية منطقية أو كرونولوجية، إنما هي أولية ميتافيزيقية. ولفهم معنى الأخلاق الميتافيزيقية هذه ينبغي أولاً نفيها عن الأخلاق التي تسن الأوامر القطعية. فهي لا تقول لنا ما يجب فعله في حالات معينة، ولا تقول لنا ما التصرف الذي يتحتّم علينا تبنيه في ظرف معين. على العكس من ذلك، ترى إيطيقا ليفيناس ضرورة الابتعاد عن هذا النوع من الأخلاق، لأنها تُبطل ما في الوجود الإنساني من فردية. من المناسب في هذا السياق التمييز بين الأخلاق القطعية والإيطيقا. إيطيقا ليفيناس حيادية من الناحية الأخلاقية. ربما تتبغي مقاربتها من معنى الإيطيقا لدى سبينوزا، أي، كطريقة في الوجود، مع الفرق أن لدى ليفيناس، تأخذ معنى طريقة في ماوراء الوجود. الهروب من الوجود، العزلة إذن، يتم من خلال العلاقة مع الآخر.

إن الضابط الأخلاقي الوحيد هو لقاء الأنا مع الآخر، أو ما يسميه ليفيناس الـ وجهاً–لِـ–وجه. وينتج من هذا اللقاء وضع تلقائيتي وحريتي موضع شك، وذلك نتيجة لغرائبية الآخر واستحالة إمكان اختزاله إلى عالم الأنا.

لكن لماذا "الإيطيقا"؟ لماذا اختار ليفيناس أن يصف الميتافيزيقا بالإيطيقا؟

لأن الحقيقة الأولى – بالمعنى الفلسفي الحصري لهذه الكلمة – هي حقيقة إنسانية. وهذه الحقيقة أخذت شكل وصية، وهي: "لا تقتل". هذه الوصية أملاها اللقاء وجهاً–لِـ–وجه، وهي التي أرست المعنى الاول للإنساني الذي وجد صوغه الأمثل مع ظهور الدين. الدين هو العلاقة التي تنشأ بين الأنا والآخر والتي لا يمكن أن تندرج داخل الكلانية. يقيم ليفيناس تعارضاً بين السياسة (الاسم الآخر للأنطولوجيا) والدين: فالسياسة تنزع نحو الاعتراف المتبادل ونحو المساواة، لتحقق بذلك السعادة. والقانون السياسي هو صراع من أجل نيل الاعتراف. أمّا الدين، فهو رغبة وليس صراعاً. هو الفائض الممكن في مجتمع يقوم بين متساويين.

هذه الأولية للإيطيقا لا يمكن فهمها إلا في سياق دحض الأولية التي أعطاها هيدغر لمشروعه في الأنطولوجيا الأساسية. وهذا ما يمكن قراءته بسهولة منذ الصفحات الأولى من كتابه **الزمان والآخر**. في الحقيقة، إن هذا العنوان هو رد على **الكينونة والزمان**. يتساءل هيدغر في آخر سطور كتابه: "هل ثمة سبيل تقود من الزمان الأصلي إلى معنى الكينونة؟ وهل يتجلى الزمان ذاته بوصفه أفق الكينونة؟ [15]. كان ينبغي أن يكون هذا السؤال فاتحةً لكتاب مكمل لـ **الكينونة والزمان**، يبحث فيه هيدغر مفهوم الزمان كأفق، أو من حيث هو ما وراء الكينونة، وليس معنىً يتشكل في صلب الكينونة. لم يكتب هيدغر هذا الجزء الثاني، أو كتبه وأتلفه على ما يقول شرّاحه ومتابعوه، وكانت الانعطافة نحو مسألة "تجاوز الميتافيزيقا".

إن السؤال الذي طرحه ليفيناس في الأسطر الأولى من هذا الكتاب ما هو إلا إجابة عن سؤال هيدغر: "هل الزمان تحديد الكينونة المتناهية أم علاقة هذه الكينونة المتناهية مع الله؟ [16]"تظهر فلسفة هيدغر أن الزمان ليس إطاراً للوجود الإنساني. فتزمن الزمان هو حدث فهم الكينونة. الزمان هو الفهم في طور الحدوث، وهو في أساس الفهم، شرط تمفصلاته. أمّا الفهم فهو نمط وجود الإنسان. هو لا يحدد ماهية الإنسان، وإنما كينونته.

يرى ليفيناس أن أهم ما جاء في فكر هيدغر هو إقراره أن فكر الكينونة هو فكر فعل الكون، ولا يحمل بالتالي الشمولية التي نسبها إليه هذا الأخير. يقول في هذا الإطار: "نتكلم عادة عن الكلمة "كينونة" كمل لو أنها اسم، إلا أنها

---

[15] **هيدغر، الكينونة والزمان، ص740.**
[16] **الزمان والآخر، ص26.**

فعل بامتياز (...) مع هيدغر، انبثق من جديد أصل الكلمة كفعل، وهو بذاته حدث فريد.[17]" بالتالي، إن الفلسفة الغربية قامت على أساس النسيان الأصلي لفعلية هذه الكلمة. وتكفي مغادرة هذه اللغة لمغادرة مشكلة الكينونة بأسرها.

يحدد ليفيناس شرط إمكان بلوغ معنى الإنساني في الهروب خارج الكينونة. في كتابه الذي يحمل عنوان **هروب**، يقول ليفيناس: "إن حاجة الهروب (...) تقودنا إلى صميم الفلسفة، وتسمح لنا بتجديد المشكلة القديمة للكينونة بما هي كينونة[18]". الماهية هي الطريقة التي يكون وفقها الكائن في العالم، وعالقاً في إمكاناته. لكن هذه الطريقة ليست كلية، فهي تحمل علامة الحضارة الغربية. إن خصيصة هذه الطريقة في الوجود هي أنها تمنع كل تعالي ممكن. هذا المنع ناتج – كما شرحنا سابقاً –من لا تحدد الكينونة. هذا الوجود الشر يحمل الموجود على الخروج والهروب إلى ما وراء الكينونة، إلى الآخر.

في مقدمة **الكلانية والمتناهي**، يرسم ليفيناس لوحة تختزل الصورة القاتمة التي تشكل حاضر وماضي الوجود البشري، مفادها أن الكينونة حرب، فيعارض بين أنطولوجيا الحرب واسكاتولوجيا السلام. تقوم فلسفة الهروب لدى ليفيناس على مسلمة مفادها أن الكينونة هي الإمكان المحض للحرب، إمكان يُعلّق الأخلاق. فالحرب ليست مجرّد محنة أخلاقية، وإنما خبرة تجعل الأخلاق سخيفة. الحرب خبرة محض بالكينونة الخالصة . ووجه الكينونة الذي يتجلى من خلال الحرب يتثبت من خلال مفهوم الكلّانية الذي هيمن على الفلسفة الغربية، حيث يختزل الأفراد إلى حاملي قوة وينهلون معناهم من خلال الكلّانية. كما أن السلام الحاصل بين القوى الخارجة من الحرب يرتكز على الحرب. فهو لا يعيد الهويات الضائعة إلى الموجودات المستلبة. السلام المحض لا يحصل إلا عبر الهروب من الوجود من خلال العلاقة مع الآخر، كما من خلال ذاتية تستند إلى خبرة فينومينولوجية يراها ليفيناس مبهرة: وهي أن الذات بمقدورها احتواء أكثر مما يمكنها احتواؤه، أي، ذاتية مضايفة للآخر في جوهرها. فما أطلبه من نفسي لا يتقايس مع ما بوسعي طلبه من الآخر. أنتظر من نفسي أكثر مما أنتظر من الآخر. تُشير هذه الخبرة البسيطة إلى لا تناظر ميتافيزيقي: استحالة أن أتحدث عن نفسي وعن الآخر بالمستوى نفسه، أي، استحالة تضمين الأنا والآخر داخل كلانية واحدة. يعود هذا اللاتناظر الميتافيزيقي إلى علو الآخر.

لا يعني هذا العلو أن الآخر يمتلك قدرة تعلو على قدرتي. على العكس، فالآخر هو "اليتيم والأرملة" – كما يقول ليفيناس في **الزمان والآخر**. علوّه يعني خارجانيته، ويعني أنه لا يشكل جزءاً من عالمي. من هذا العلو ينتج أنه لا يمكن العلاقة بين الانا والآخر أن تكون عكوسة، لأنه لا يوجد تقابل أو تناظر بين الأنا والآخر. كما لا يمكن أن تكون تضاداً، وإلا شكل الآخر جزءاً من الكل. ولا يمكن أن تكون علاقة تملك أيضاً. ولا تحديد: فالأنا لا تمتلك الآخر والآخر لا يحدّ الأنا. كما أنها لا يمكن أن تكون علاقة سلب، فالسالب والمسلوب ينتمون إلى النسق ذاته.

العلاقة الوحيدة هي اللاعلاقة، أو الانفصال. أمّا طرائق الاتصال جميعها، كالتَّيمة thématisation والفهم والمقابلة والتمثّل والمعرفة والمفهمة – هذه الطرق كلها أنطولوجية، وستقود لا محالة إلى اختزال الآخر.

تشكل فكرة الانفصال الحجر الأساس في أخلاق ليفيناس. فالانفصال ضروري لامتلاك فكرة اللامتناهي. غير أن هذا الانفصال ليس أثراً لهذه الفكرة، وإلا وصلنا إلى توازٍ يُفضي إلى الكلانية. إن كانت الكلانية ممتنعة، فهذا لأن اللامتناهي يمتنع عن الدمج. بالتالي، ليس عدم كفاية الأنا هو ما يعطل إنجاز الكلانية، وإنما لا تناهي الآخر. يتصل

[17] **Ethique et infini, p. 28.**
[18] **De l'évasion, p. 113.**

الكائن المنفصل عن اللامتناهي معه في الميتافيزيقا، ويتصل معه بعلاقة تلغي فسح الانفصال. في الميتافيزيقا، يرتبط الكائن مع ما لا يمكنه استغراقه ووعيه. يسمي ليفيناس هذه العلاقة – الـ من دون علاقة – الدين.

سادساً. الإلحاد والدين

"إنه لمجد أن يستطيع الخالق خلق كائن قادر على الإلحاد [19]" – يقوللليفيناس. إن الانفصال الإلحادي للكائن المنفصل تتطلبه فكرة اللامتناهي. والعلاقة بين الأنا والآخر لا تلغي الانفصال، وإنما تتثبت داخل التعالي. "لا تقوم أعجوبة الخلق على الخلق من العدم وحسب، وإنما على بلوغ كينونة قادرة على تلقي تجلٍّ، وهي تعلم أنها مخلوقة لتبدأ بوضع نفسها موضع تساؤل. إن أعجوبة الخلق تقوم على خلق كائن أخلاقي، وهذا يفترض الإلحادية. [20]" وحده الكائن الملحد يمكنه الاتصال بالآخر. هذا الاتصال لا يتم بواسطة المشاركة، أي إنّ التعالي لا يتم عبر الاتصال مع المتعالي. وحده الكائن المنفصل (الملحد) يمكنه استقبال تجلي الآخر. الإلحادية تشرط علاقة حقّة مع إله حق. هذه العلاقة تختلف عن المشاركة وعن المعرفة. يسميها ليفيناس دين، أو "ضيافة الوجه"؛ علاقة من دون عنف، وسلام محض مع الآخرية المطلقة، أو، "سماع الكلام الرباني": "إن سماع الكلام الرباني لا يعني معرفة موضوع، إنما يعني الدخول في علاقة مع جوهر مجاوز للفكرة التي أحملها عنه، مجاوزة لما كان ديكارت الوجود الموضوعي [21]". الانفصال شرط سماع الكلام الرباني. وهذا ما يظهر في تأويل ليفيناس لقصة إبراهيم.

اهتم ليفيناسبالصوت الذي منع إبراهيم من التضحية بابنه وأمره أن يستبدل حملاً به. يمثّل هذا الصوت القانون الأخلاقي: "أن يطيع إبراهيم – يكتب ليفيناس– الصوت الأول أمرٌ مدهش، لكن أن يكون قد احتفظ إزاء هذه الطاعة بمسافة كافية ليكون قادراً على سماع الصوت الثاني –هذا أمر جوهري. [22]" هذه المسافة هي التي منعت محنة إبراهيم من أن تتحول إلى جريمة دامية.

الآخر المطلق – أو اللامتناهي –الذي لا ينتمي إلى عالمي، ليس أنا أخرى، ليس حضوراً، وإنما غياب مطلق. "الآخر بما هو آخر هو الآخر الإنساني [23]". وما أراه من الآخر هو وجهه فحسب. إن نمط حضور الآخر المطلق، والذي هو الغياب، يترك أثره في الوجه. هذا الأثر هو أثر لغياب، لا لحضور. فالآخر لم يحضر قط. والأثر يشير إلى ماضٍ غير عكوس، ولا يمكن لأي ذاكرة اللحاق به. كما يشير إلى ما وراء الكينونة، وإلى ضمير الغائب: الـ "هُوَ". هووية هي كل لا تناهي الآخر المطلق المنفلت من الأنطولوجيا. "هو" يعطيه ليفيناس اسم "الله": "الله الذي مضى لي النموذج الذي يكون الوجه على صورته. لا يعني الكون على صورة الله الكون كأيقونة لله، وإنما الخروج في أثره"[24].

والخروج في أثره لا يعني الذهاب نحوه، وإنما نحو الآخرين حيث يتجلى أثر الغياب. والأثر ليس علامة. ينكشف غياب الأشياء من خلال العلامة، لكن الأثر لا يكشف شيئاً، وهو يدل من دون أن يظهر من خلاله شيء. هو أثر لغياب وليس مجرد تعديل لحاضر مضى. وبالتالي لا يمكن لأي فينومينولوجيا اختزاله. إنه أثرٌ لماضٍ ما كان حاضراً يوماً. ولا يمكن ان يمكن موضوع تمثّل. أثر سابق على كل أصل وكل ابتداء. هو الما قبل أصلي أو الهووية. هو ما كان هنا دائماً من دون أن يحضر. وبما هو كذلك، يشكل الأساس لكل وصية أخلاقية باعتباره الوعد الذي يشكل أفق المستقبل. هو ماضٍ لم يحضر قط، وآتٍ لن يصل أبداً.

[19]Totalité et infini, p. 16.
[20]Ibid., p. 88.
[21]Ibid., p. 75.
[22]Noms propres, p. 67.
[23]Ibid., p. 18.
[24]Totalité et infini, p. 143.

يمكن اختزال فينومينولوجيا ليفيناس في العلاقة بين الأنا والآخر بمقولتين: الأنا جسد والآخر وجه. إن ظهور الآخر يقوم على مناداتنا عبر بؤسه في وجه الغريب والأرملة واليتيم. وعلاقتنا مع الآخر هي سلوك أخلاقي وليست لاهوتاً أو معرفة بخصائص الله عبر التماثل. الآخر الإنساني ليس تجسداً لله، وإنما "ظهور للعلو حيث يتجلى الله.[25]"

لا يمكن فهم الآخر عند ليفيناسإلا بربطه بتعالي اللامتناهي. لكن هذا لا يعني تعليقه القطعي بما وراء الوجود، لأن معنى التعالي لا يُصبح ممكناً هو الآخر إلا من خلال العلاقة مع الآخر الإنساني: "التجربة، أي، فكرة اللامتناهي في العلاقة مع الآخر. إن فكرة اللامتناهي هي العلاقة الاجتماعية. [26]" بالتالي، لا معنى للامتناهي إلا من خلال العلاقة الأخلاقية المتجسدة. وهذا ما يُبعد إيطيقا ليفيناس عن أي مبحث لاهوتي. بل إن هذا الأخير لا معنى له خارج العلاقة الإيطيقية.

يصف ليفيناس الآخر كوجه. الوجه هنا ليس مفهوماً كجزءٍ من الجسد، وإنما يعني أنه ثمة لدى الآخر عري أصلي. وهذا العري له دلالة مزدوجة. فهو يعني أولاً أن الآخر يمثل إلى الأنا في عريه، أي ينكشف في دلالته الأولى ومن دون سياق أو مفهوم. هذا المثول المحض هو ما يُعرِّفه. فمثوله يكون بمنأى عن كل تمثّل ولا ينتج من أي تأليف ترنسدنتالي.

"الأخلاق هي الفلسفة الأولى"؛ هذا يعني أنّ الفلسفة كانت تسير نائمةً نوعاً ما– كما سيقول ديريدا شارحاً ليفيناس، وأن موضوعاتها كلها منذ أفلاطون حتى هوسرل كانت موضوعات خاطئة قامت على إعراضٍ بدأ منذ اهتمت الفلسفة بالكينونة والحقيقة ونسيت منشأ وأصل هذه المقولات.

غير أن إعلان ليفيناس الافتتاحي لا يعني أن على الفلسفة أن تهجر موضوعاتها وطرائقها، وما توصلت إليه من مناهج سيستفيد منها ويطوّعها للتدليل على فلسفته،بلأن على الفلسفة التي اهتمت بمقولات "الأصل" (الحقيقة والمعنى والكينونة والماهية ...) أن تتذكر "ما قبل الأصل" (le préoriginaire)، وأن تلك المعاني الأصلية (أو، الأنطولوجية) كلها قد تأسست على الدلالة ما قبل الأصلية التي لا يمكن أن تندرج في سياق؛ هذه الدلالة هي اللقاء وجهاً–لـ–وجه مع الآخر الإنساني. ومن هذا الحدث ما قبل الأصلي يكتسب الوجه دلالته الأصلية.

كيف يمكن أن تكون الإيطيقا فلسفةً أولى، مع العلم أن المعنى الأول للإنسانية الذي كشف عنه ليفيناس، والمتمثل في اللقاء وجهاً–لِ–وجه الذي يملي وصية "لا تقتل!"، وهي لا تتضمن الضرورة التي تقتضيها الفلسفة الأولى؟ هنا يميز ليفيناس بين الضرورة الأنطولوجية والوصية الأخلاقية. فالقتل ممكن أنطولوجياً على الدوام،أما الـ "لا تقتل" فوصية أخلاقية[27]. ينتقد ليفيناس أيضاً هوسرل، الذي يمثل بالنسبة إليه تتويجاً للتقليد الغربي في اختزال الآخر إلى أنا أخرى. وهذا ما قام به هوسرل في التأمل الخامس من **التأملات الديكارتية**، فالآخر بالنسبة إلى هوسرل هو أنا أخرى (alter ego) ينتمي إلى عالمي، إلى العالم الذي أشكلهأنا.

إلا أن الفكرة الأساسية لفلسفة ليفيناس هي أن الآخر غير موجود، بمعنى أن كينونته تقوم على اللاوجود–في– العالم الذيأشكلهأنا.**الأنا توجد في العالم من خلال الجسد، أما الآخر فلا–يوجد–في العالم من خلال الوجه** . يتعالى الآخر من خلال الوجه. فالجسد يوجد ويتموضع، أما الوجه فيتوارى. "لا–يوجد– في–العالم"؛ أي أن طريقة وجوده تقوم

[25]Totalité et infini, p. 77.

[26]En découvrant l'existence avec Husserl et Heidegger, p. 172.

[27]أو كما يقول جان ماري مولر: " إنَّ اكتشاف وجه الإنسان الآخر في عطوبيته وتعاليه يجعلني أعي، وفي آنٍ معًا، إمكانية ولا إمكانية القتل"، في أنسية الإنسان الآخر.

على الاختباء، ولا ينعرض أمام قصدية المعرفة، «فهو ينسحب داخل لُغزه» [28]، والعلاقة معه هي علاقة مع سرّ، ومع ما طريقةُ وجودِه هي التواري.

إن خارجانية الآخر أو علوه ليست بالنسبة إلى ليفيناس مكانية. ليفيناس يتحدث عن خارجانية ما قبل مكانية: «خارجانية غير موضوعية وغير مكانية (فلو كانت مكانية لأمكن استعادتها من خلال الوعي) [29]». وفي موضع آخر، يشدد ليفيناس على الخطأ في فهم علو الآخر بمعنى مكاني [30]. معنى العلو الدقيق هو أن الآخر لا ينتمي إلى العالم، لا ينتمي إلى عالم الأنا.

خاتمة. الآخر الأنثوي

نختم بحثنا بفكرة موجزة عن تحديد ليفيناس للآخر كأنثوي. يقدّم ليفيناس تعريفات متنوعة للآخر؛ فهو الله، والابن، واليتيم والأرملة. لكنفي أثناء بحثه عن آثار العلاقة بالآخر في شكلها الأصلي في حياتنا، يجد هذه الآخرية الخاصة في "الأنثوي". إن "الأنثوي" هو التحديد الأول للآخر الذي قدّمه ليفيناس في **الزمان والآخر**.

الأنثوي ليس صفة أو خاصية تُضاف إلى موجود متشكل ماهوياً بشكل مسبّق، إلى موضوعٍ أو "أنت" معطىً مسبقاً ونلقاه في عالمنا.يقدم ليفيناس الأنثويوفق تعريفات أثارت جدالات كثيرة، إذ قد يُعطي ظاهرهاً انطباعاً بـ"التمركز حول الذكورة"، وهو النقد الأساس الذي وجهه إليه ديريدا في كتابه **ابتكارات الآخر**.

فالأنثوي وجود "لا حيلة له"، وضعف وهشاشة. إنه مادية فائقة.لا يعنيذلك أنه "حضور كثيف للمادة" أو غياب للإنساني، أو تكاثر للمادة نفسها. كما لا يعني أنه مادة ترزح تحت ثقل عطالتها. مادة فائقة بمعنى العري، أو فضحالسر. مادة فائقة وكثافة "من دون دلالة".

لا شك في أن هذه التعريفات تُعطي انطباعاً أولياً بالتمركز حول الذكورة، لكن ربما ينبغي وضعها ضمن سياق الفينومينولوجيا لفلسفة ليفيناس. فالذكورة هي وجود–في–العالم، هي طريقة الأنا في الوجود في العالم الأنا هي«الوجود المنفصل والبطولي [31]»، وضوح ونور حيث يختفي في الذات كل ما هو صادم للأنا، وكل ما هو آخر. الذكورة أنا وجسد، وجود منفصل ومنعزل.ومقابل هذه الذكورة التي هي وجود في العالم، وجسد، يضع ليفيناس الأنثوي.

الأنثوي هو طريقة الآخر في اللاوجود–في–العالم، وجه وعري، وعري وجه في المقام الأول.لا بد من فهم التعريفات السابقة وطرائق الآخر كلها في اللاوجود في العالم ضمن هذا السياق. فمقابل الوضوح الذي تمثله الذكورة، يضع ليفيناس الإبهام كطريقة الأنثوي في الظهور، والهشاشة، واللادلالة. "وزنلا معنى له" – يقول ليفيناس: لكنه أشد ثقلاً من ثقل الواقع.

[28] الزمان والآخر، ص96.
[29] *Dieu, la mort et le temps*, p. 204.
[30] *Totalité et infini*, p. 267
[31] *Totalité et infini*, p. 343.

المراجع

بالعربية

إيمانويل ليفيناس، *الزمان والآخر*، ت. جلال بدلة، دمشق: معابر، 2014.

جان ماري مولر، إيمانويل ليفيناس، *أنسية الإنسان الآخر* ، ت. جيروم شاهين، معابر، على الرابط: http://www.maaber.org/issue_september10/perenial_ethics1.ht

هيدغر، مارتن، *الكينونة والزمان*، ترجمة وتحقيق فتحي المسكيني واسماعيل مصدق، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2012.

بالفرنسية

- *De l'évasion*, Montpellier, Fata Morgana, 1962.
- *De l'existence à l'existant*, Paris, J. Vrin, 1978, nouvelle édition, 1993.
- *Dieu, la mort et le temps*, Paris, Grasset, 1993.
- *En découvrant l'existence avec Husserl et Heidegger*, Paris, J. Vrin, nouvelle édition aug. 1967, 3e édition 1974.
- *Entre nous : Essais sur le penser-à-l'autre*, Broché, 1991.
- *Éthique et Infini*, (dialogues d'Emmanuel Levinas et Philippe Nemo), Paris, Fayard, coll. « L'Espace intérieur », 1982.
- *Noms propres*, Paris, Le Livre de poche, coll. « Biblio essais », 1987, 2014.
- *Totalité et infini : Essai sur l'extériorité*, Le Livre de Poche, 1991 (1re éd. 1961).